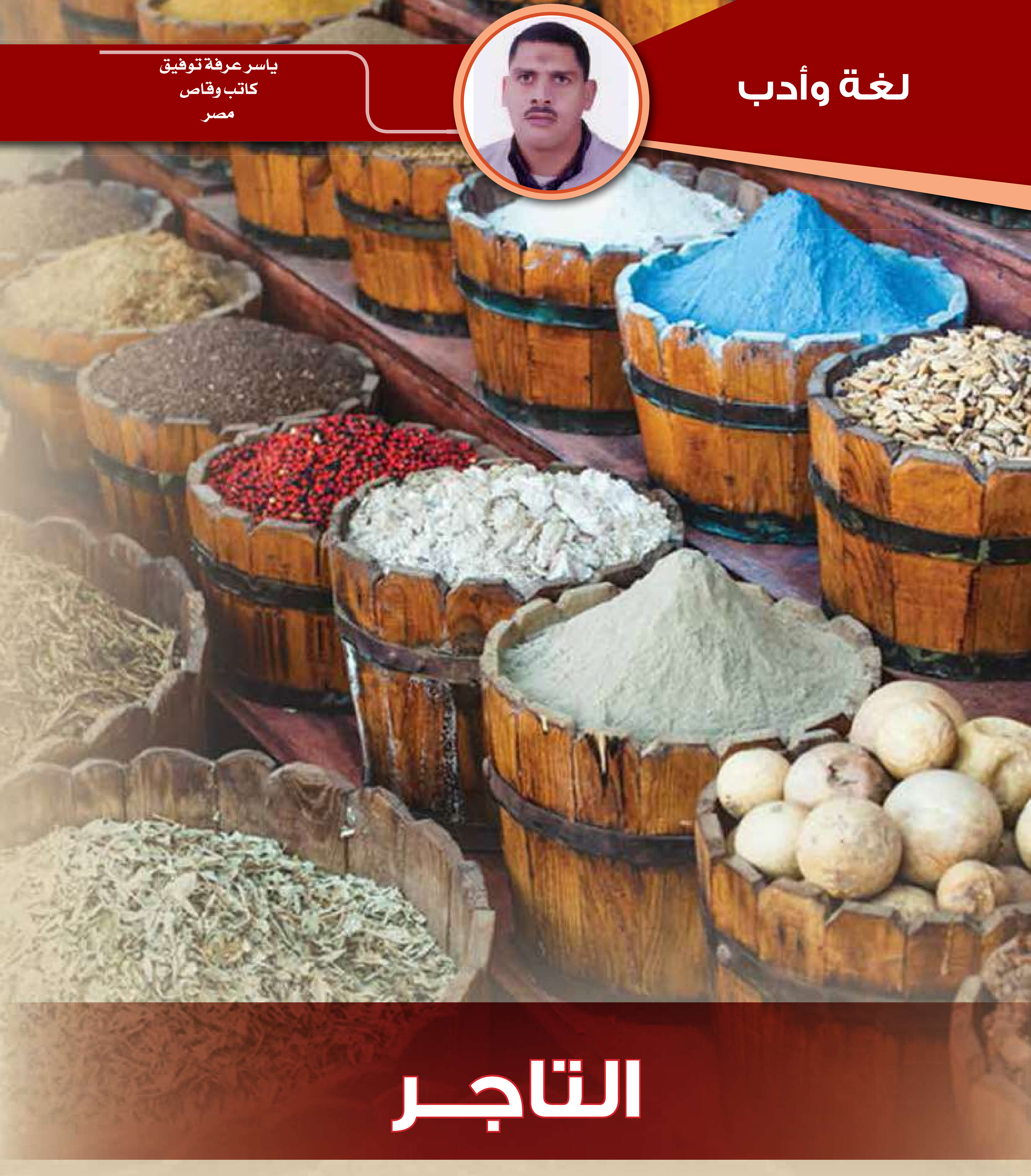
ياسر عرفة توفيق
كاتب وقاص
مصر



التاجـــر

ألقى بثقل جسده المنهك على أقرب كرسي وقد أحس أن التعب الذي يحمله طوال اليوم جلس معه، فقد كان يوما ليس كأيامه السابقة، فهو عائد لتوه من عزاء حبيبه وسنده والده الحبيب التاجر المعروف الحاج عبدالرحمن، وكان مشهدا عظيما؛ فوالده من التجار المعروفين المؤسسين لتجارة العطارة والأعشاب في هذا الحي الشعبي الكبير، وكان دكانه العتيق ملتقى الرائح والغادي، بل كان يقصده أهل المناطق البعيدة؛ حتى إنه يتذكر أنه رأى مرارا مرتادين من جنسيات عربية مختلفة؛ ذلك لما تمتع به والده من حسن سمعة وأمانة، ومن

ناحية أخرى مهارة؛ فكل ما تطلبه من أصناف أصلية تجده عنده لا غش فيها ولا تقليد، لاسيما وصفات الأعشاب المشهورة لعلاج الأمراض المستعصية.

كان قد فرغ من تلقي العزاء، الذي لم ينقطع طوال النهار والساعات الأولى من الليل، فقد كان والده الحاج عبدالرحمن صاحب علاقات اجتماعية مميزة، فقد كان لا يفوته واجب ولا تراه إلا مشاركا في المناسبات المختلفة، وكم تدخل في الإصلاح بين الناس؛ لذا كانت جنازته حاشدة، ومن فاتته الصلاة والجنازة حرص على أن يكون ضمن المعزين، الذين راحت ألسنتهم تلهج بمحاسن والده وخصاله الطيبة، وكم قص منهم مواقف شخصية محمودة حدثت معه أو كان شاهدا عليها.

انصرف المعزون، وانصرف عائدا لبيت والده وهو يظهر التجلد محاولا أن يبدو متماسكا حين يلقى والدته، ولكنه لم يفلح.. فما أن رآها حتى تلقفته يداها وقد دس وجهه يشهق باكيا وهي تربت عليه موصية إياه بالصبر والتجلد: ولدي إنما الصبر عند الصدمة الأولى ولنا في مصابنا بفقد رسول الله ﷺ الصبر والسلوان.

يعز علي فراقه يا أماه. راحت تهدئه: ومن مثل أبيك في الرجال يا بني؟! لكننا لا نملك إلا التسليم لأمر الله وقضائه، هيا كي تستريح يكفيك تعبك أيام العزاء الثلاثة وكي تستيقظ غدا وتعاود فتح دكان أبيك. لكن يا أمي... لكن ماذا يا بني؟ لن تقف الحياة بفقد عزيز، كما أن هناك ارتباطات وعقودا أبرمها والدك رحمه الله، وأيضا هناك عمال جعل الله دكان أبيك سببا في جريان رزقهم ورزق من يعولون، توكل على الله يا بني.

كانت والدته صالحة تقية، ألِف منذ صغره أن يراها قائمة صائمة مطيعة لوالده الذي أحسن عشرتها فمضى البيت هادئا مستقرا.. هو الماهر الأمين في تجارته التي تتسع يوما بعد يوم، وهي تتولى شؤون بيته وتربيته، وهو ابنهما الوحيد الذي رزقهما الله فمضت الحياة بأسرتهم هانئة مستقرة وقد نشأ في كنف والديه، ولكن اليوم ها هي الأسرة تهتز بوفاة العائل المعين.

أيقظته والدته صباحا في الميعاد نفسه الذي تعود والده أن يذهب فيه إلى دكانه الواسع وهي تظهر الاستسلام لأمر الله وقضائه قدر المستطاع.. خطا خطواته فالدكان ليس بعيدا عن المنزل، وطوال الطريق لم يخل من مواس مترحم على الوالد حتى وصل إلى دكان أبيه فوجده مفتوحا وقد دبت الحركة فيه.. فتمتم إنها الوالدة بحسن تدبيرها قد أرسلت تعلم من كان يعتمد عليهم والده وفيهم ثقته بأن تعود الأمور طبيعية كما كانت، ولم تكن في حاجة إلى أن توصيهم أن يكونوا خير معين لولدها، وقد حافظت هي على عاداتها اليومية كما كانت تفعل مع والده، فكانت ترسل إليه طعام الإفطار وطعام الغداء، كما كانت تخصه والعاملين معه بما تتقنه من صنوف الطعام.. استتبت الأمور في دكان والده، وعادت إلى سابق عهدها، ولم تنس والدته أن توصيه ألا يقطع ما كان أبوه يجريه من إحسان لبعض اليتامى والمحتاجين.

وكان يزوره من آن إلى آخر في دكانه بعض من أصحابه، وكان منهم أصحاب تجارة ملابس وسيارات وغيرهما، فعرض عليه أحدهم يوما، وكان تاجر ملابس قد ازدهرت تجارته ونمت بعد أن افتتح فروعا عدة، إلى أن استورد ماكينات للخياطة والتطريز، إلى إقامة مصنع ملابس، إلى التصدير إلى صاحب علامة تجارية.. عرض عليه صاحبه أن يغير نشاط تجارته، فدكان أبيه في منطقة مشهورة ومساحته واسعة، فقط يلزمه بعض التغييرات في الديكورات الحديثة ليصبح مركزا تجاريا لا يضاهى للملابس، وكصاحب له سوف يحضر إليه البضاعة بأسعار وجودة لا تضاهى، وحدثه عن تجربته كيف بدأ وكيف صار ولم يكن بحاجة إلى أن يذكر له ذلك، لأنه من الملحوظ لكل من يعرف صاحبه ما وصل إليه من ثراء.

لاحظت أمه الشرود والتفكير اللذين صارا يغشيانه خلال الفترة الأخيرة، فلم تتدخل ولم تشعره أنها تلاحظ ذلك، بل تركته وهي تراقبه من بعيد تنتظر ما يسفر عنه الصراع الذي يحتدم داخله.

من حقي أن أواكب التغيرات التي ألمت بالأسواق! ما لي وتجارة العطارة والأعشاب؟! لا، ليس في تركها عقوق لوالدي رحمه الله، أليس من حقي أن ألحق بأصحابي ويكون لي مثل تطلعاتهم وثرائهم؟! لا، ليس في تغيير نشاطي التجاري مساس بمشاعر والدتي، فهي يهمها أن تراني في أحسن حال وأنا وحيدها.

أصابه الصداع من كثرة التفكير، وطرأ عليه الفتور من الدكان حتى إنه صبيحة اليوم التالي لم يستيقظ كعادته في مواعيد ذهابه لدكان والده، ولما تفقدته أمه أجابها بأنه متعب قليلا، فراحت تعد له فطوره وترسل تخبر من يعملون معه بأنه

سوف يتأخر قليلا اليوم فلا يقلقوا عليه حتى يحضر إليهم بعد ساعات، جهزت له والدته عصيرا طازجا كان يحبه، وصنعت لنفسها كوبا معه وحملت العصير إليه، راحت تربت على كتفه بحنانها المعهود: هيه ياولدي لم تحسم الصراع داخلك؟ لا تظن أنني لم ألاحظ حيرتك وانشغالك بأمر تعالجه داخلك، ألم تقرر بعد؟! نظر إلى والدته بنظرات الاستجداء طالبا مساعدتها وقد غلبه الهم.. ابتسمت وقالت: يابني، أنا أثق في رجاحة عقلك وحسن تدبيرك، وعلى هذا ربيتك أنا ووالدك، رحمه الله، فزن الأمور واستخر يا بني واستشر، فما خاب من استخار وما ندم من استشار، هيا لتعاود عملك فهم هناك في انتظارك.

لم يذهب على التو إلى دكان العطارة، بل قصد المقابر يزور قبر أبيه مترحما عليه داعيا له، وعاد إلى دكانه، وعندما عاد مساء وجد والدته قد أعدت له العشاء ولم تشغل نفسها بسؤاله، بل تعمدت أن تشعره أنها غير مهمومة به بصورة ظاهرة.

على غير عادته خلد إلى النوم مبكرا ليستيقظ قبل صلاة الفجر وراح يتهيأ للوضوء ليصلي ركعات عسى الله أن يلهمه رشده ويفتح عليه بما يزيل همه ويريح باله، وقد رأى والدته على سجادة صلاتها، كعادتها، تمسك مسبحتها ما بين التسبيح والدعاء والصلاة.

صلى ركعتين أفرغ فيهما همه وبث فيهما لمولاه شكواه سائلا أن يلهمه رشده وينير بصيرته ويهديه لما فيه الخير وقد بدأت نسمات الفجر تهب، وراحت أقدام الساعين إلى المسجد تقرع الطريق في سكون السحر وهدأته، راحت أقدامه تسابق الساعين حتى انتظم بينهم مصطفا مناجيا سائلا راغبا، شعر بالسكينة والاطمئنان، بعد أن فرغ من الصلاة وأذكارها وما بين المسجد والبيت راح يتمتم بما فتح الله عليه من أذكار الصباح مستبشرا، استلقى على سريره وراح يوازن بين الأمور، فالمكانة التي وصل إليها والده في دكان العطارة كانت حصيلة سنوات طويلة من الجد والاجتهاد والأمانة والإتقان حتى صار اسما معروفا ومقصدا معلوما، فهل يغامر بهذه السمعة ويغامر بما علمه والده إياه من أسرار هذه الصنعة ومهاراتها؟ هل يغامر بهذه الثقة التي صنعها والده مع كبار التجار والموردين والأسواق العالمية والمحلية والتي أنفق حياته في صنعها؟! ليدخل في مجال جديد يلزمه الكثير ليعرف أسراره وأصول صنعته ولا تخلو الأمور من المغامرة؟! هل يغامر بمن معه وقد أتقنوا العطارة وفنونها والأعشاب؟! هل يضيره لو طور في مجال الأعشاب والعطارة بأن يدخل مجال التجارة الإلكترونية فيها ويستعين بالتقنيات الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي المختلفة التي جعلت العالم المتسع قرية صغيرة ليوسع من تجارته ويطور ويدخل في بعد جديد حين يتعرف على أصناف جديدة وعملاء وأسواق جديدة؟! لم يضيع وقته؛ قفز من فراشه نشطا، تناول الكمبيوتر المحمول الخاص به وفتحه وراح يسطر أفكاره الجديدة مفصلا وهو ينشئ حسابات جديدة على وسائل التواصل المختلفة لدكان العطارة مستعرضا التجارب الواسعة المنتشرة في هذا المجال، لم يشعر بصوت أقدام والدته وهي تقف على رأسه تراقب ما يفعله وقد علت محياها ابتسامة الرضا والاطمئنان على وحيدها، ربتت على كتفه بحنان مؤازرة وهي تقول: ها قد أصبح لدينا الآن تاجر يسير على خطى والده رحمه الله، تاجر صدوق إن شاء الله.